

الشيخ والمريد

الدرس
15

أهداف الدرس

1. أن أتعرف مفهوم «الشيخ» و«المريد».
2. أن أتبين صفات «الشيخ» وآداب «المريد».
3. أن أتحدى بمكارم الأخلاق مع شيوخ في التربية والتعليم.

تمهيد

المريد السائر إلى الله يحتاج إلى شيخ ناصح ومُوجّه مبصّر، ومُرشد معين يذكره بالله ويصّره بعيوب نفسه، وقد أدرك السائرون في هذا الطريق ما يحتاجه المريد في قطع المراحل من آداب تجاه شيخ التربية وتفسير لما يحلّ بنفسه من الأذواق والمواجيد.

فمن هو الشيخ؟ وما هي صفاته؟ ومن هو المريد؟ وما هي آدابه؟.

نص الانطلاق

قال الإمام أبو حامد الغزالي - رحمه الله - مبينا ما ينبغي لسالك طريق الصوفية: «... لا بد للسالك من مرشد مرب البتة؛ لأن الله تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام للخلق ليكونوا دليلا لهم ويرشدوهم إلى الطريق المستقيم. وقبل انتقال المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الدار الآخرة جعل الخلفاء الراشدين نوابا عنه ليدلوا الخلق إلى طريق الله، وهكذا إلى يوم القيامة، فالسالك لا يستغني عن المرشد البتة. وشرط المرشد أن يكون عالما، لكن ليس كل عالم يصلح للإرشاد، بل لا بد أن يكون عالما له أهلية صناعة الإرشاد، ولهذا المرشد علامات ونحن نذكر لك ما لا بدّ له منهما بطريق الإجمال حتى لا يدعي الإرشاد كل متحير؛ فالمرشد هو الذي يكون قد خرج من باطنه حب المال والجاه، وتأسس بنيان تربيته على يد مرشد كذلك حتى تنتهي السلسلة إلى النبي ﷺ، وذاق بعض الرياضيات كقلة الأكل والكلام والنوم، وكثرة الصلاة

والصدقة والصوم ، واقتبس نورا من أنوار سيدنا محمد ﷺ ، واشتهر بالسيرة الحسنة والأخلاق الحمودة من: صبر ، وشكر ، وتوكل ، ويقين ، وطمأنينة ، وسخاء ، وقناعة ، وأمانة ، وحلم ، وتواضع ، ومعرفة ، وصدق ، ووقار ، وحياء ، وسكون ، وتأن ، وأمثالها ، وتظهر من الأخلاق الذميمة ، كالكبر ، والبخل ، والحسد ، والحقد ، والحرص ، والأمل الطويل ، والطيش ونحوها ، وسلم من تعصب المتعصبين ، واستغنى عن علم المكلفين بالعلم المتلقى عن رسول الله ﷺ ، فالإقتداء بمثل هذا المرشد هو عين الصواب والظفر بمثله نادر لا سيما في هذا الزمان .

[رسائل الغزالي ، ص 173].

الفهم

استخلاص المضامين:

- أستخلص من نص الإمام الغزالي صفات المرشد الذي يدل على طريق الخير والسعادة .

الشرح:

- **السالك:** السائر إلى الله ، المتوسط بين المريد والمنتهي ما دام في السير .
- **المرشد:** الذي يهدي ويدل غيره على طريق السعادة .

التحليل

أولا: الشيخ

1. مفهوم الشيخ عند الصوفية

الشيخ عند الصوفية «هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، البالغ إلى حد التكميل فيها لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها... ، والقيام بهاها إن استعدت ووفقت لاهتدائها» [موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ص 516]. فالشيخ من يقوم بالتزكية والتهديب والإرشاد، وقيل في حقيقته «الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم، وسرُّك بالتعظيم، الشيخ من هذب بأخلاقه، وأدبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه، الشيخ من جمعك في حضوره، وحفظك في مغيبه» [الدر الثمين والمورد المعين، لميارة، ص 584].

2. وظيفة الشيخ عند الصوفية

وظيفة الشيخ أن يدل على الله بما أذن الله به في شريعته، فلا يحيد برأيه عن صراط ربه، وقاصده لا بد له من «أصول أربعة: صدق الورع، وحسن النية، وإخلاص العمل، وصحة العلم، ولا تتم لك هذه الجملة إلا بصحبة أخ صالح، أو شيخ ناصح...»، فالشيخ مراد للعمل بما علم، وتعلم ما لم يعلم، وخروج النفس عن مرادها لمراد الحق بواسطة التحقيق في الأخذ، والتدقيق في النظر، لا للاتباع رماية في عماية، وعمل من غير سبق هداية، فحيث بان الحق والباطل فليس إلا الترك والفعل، وإن خالف ذلك أمر الشيخ أو مراده أو قصده؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وحيث أشكل أو احتمل فبصيرة الشيخ مقدمة، والاتباع لازم، والاعتراض حرمان». [عدة المريد الصادق، أحمد زروق، ص 151 بتصرف]. ووظيفة الشيخ مع المريد إرشاده إلى ما فيه صلاح دنياه وآخرته «ولا بد من شيخ كامل يخرجك من تعب نفسك إلى راحتك بشهود ربك...، ومن ذلك على الدنيا فقد غشك، ومن ذلك على الله فقد نصحك» [إيقاظ الهمم، لابن عجيبة، 27 بتصرف] فالمتصف بالمشيخة حقا هو الذي قيل فيه «الشيخ من هذبك بأخلاقه، وأدبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه» [مقدمة التصوف وحقيقته، ص 24].

3. أنواع الشيوخ عند الصوفية

قال الشيخ أحمد زروق «والمشايع ثلاثة في الجملة؛ شيخ تعليم، وشيخ تربية، وشيخ ترقية. فأما شيخ التعليم فيحتاج فيه لثلاثة:

أولها: علم صحيح، بحيث يكون مبنيا على الكتاب والسنة، مؤيدا بالأدلة الصحيحة المقدمة.

الثاني: لسان فصيح بحيث يُبين به عن المقاصد من غير احتمال ولا قصور.

الثالث: عقل رجيح يميز به مواضع العلم، ويقي به ما ينقص دينه ودنياه، فيكون تقيا نقيا.

وأما شيخ التربية فيحتاج فيه إلى ثلاثة أمور:

أحدها: معرفة النفوس وأحوالها الظاهرة والباطنة، وما يكتسب به كمالها ونقصها.

الثاني: معرفة الوجود وتقلباته، وحكم الشرع والعادة، حتى يعامل كلا بما يليق به.

الثالث: معرفة التصرف بذلك وتصريفه، بأن يضع كل شيء في محله على قدره ووجهه.

وأما شيخ الترقية، فعلامته ثلاثا:

أولها: أن رؤيته زيادة في العمل، الثاني: إن خطابه تنمية للحال، الثالث: مخالطته مثيرة للأنوار في بساط الكمال [عدة المريد الصادق، ص 151 بتصرف].

4. صفات الشيخ عند الصوفية

عني أرباب التصوف بمعرفة ما يجب أن يكون في الشيخ من الصفات الحميدة ليكون من أهل التربية والاتباع والافتداء، كما عُنوا بذكر الصفات الذميمة التي إذا وجدت فيه فإنه لا يُقتدى به. وقد اشترطوا في الداعي إلى الله أن يكون صاحب علم صحيح، وذوق صريح، وهمّة عالية، وحالة مرضية، قال الشيخ زروق رحمه الله «ويُخرَج من كلامهم أنه لا يُقتدى إلا بمن اجتمع فيه خمس خصال: العلم، والهمة، والحال، والأدب، والتجربة. ولا يُقتدى بغيره إلا أن يكون صاحب علم وإنصاف فيؤخذ بعلمه ولا يُنظر لفعله، ولا تُسَلَّم النفوس له، وإن كان تقيا نقيًا؛ لعدم الوثوق به فاعرف ذلك» [مقدمة التصوف وحقيقته، ص 26]. فلا يتصدر للتربية إلا من كان دالا على الله بعلمه وحاله ومقاله، قال الإمام الشاذلي -رحمه الله-: «إذا أردت أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله تعالى فعليك برفض الناس جملة واحدة إلا من يدلك على الله بإشارة صادقة وأعمال ثابتة لا ينقضها كتاب ولا سنة» [المفاخر العلية، ص 74].

وأما العلم بأمور الشريعة، فاشتراطه على قدر الحاجة، قال الشيخ ابن عجيبة -رحمه الله- «أما العلم الظاهر فإنما يشترط منه ما يحتاج إليه في خاصة نفسه، ويحتاج إليه المريد في حال سفره إلى ربه، وهو القدر الذي لا بد منه، من أحكام الطهارة والصلاة ونحو ذلك، ولا يشترط التبخر في علم الشريعة» [الفتوحات الإلهية، 160]. ويضاف إلى العلم الفطنة ومعرفة أحوال النفس، «فمن كان طبعه نهمة الطعام أمروه بالصيام، ومن كان ولعا بالكلام أمروه بالصمت، ومن كان مولعا بجمع الدنيا أمروه بالزهد، ومن كان مبتلى بالجاه أمروه بالخمول، وهكذا، وليست طريقهم محصورة في الصيام ولا في غيره، بل الشيخ كالطبيب حامل كل واحد بما فيه دواء نفسه» [الفتوحات الإلهية، ص 347].

أما الصفات الذميمة التي اذا اتصف بها لا تصح مشيخته، فمعروف لدى أرباب الطريقة أن من فيه خمسة لا تصح مشيخته: الجهل بالدين، وإسقاط حرمة المسلمين، ودخول فيما لا يعني، واتباع الهوى في كل شي، وسوء الخلق من غير مبالاة [المفاخر العلية، ص 112 بتصرف].

ثانياً: المريد

1. مفهوم المريد عند الصوفية

المريد هو الذي تعلقت إرادته بمعرفة الحق ، ودخل تحت تربية المشايخ؛ فهو «من انقطع إلى الله عن نظر واستبصار وتجرد عن إرادته» [التعريفات، للجرجاني، ص 269]. ويطلق «المريد» ويراد به «الذي صح له الابتداء، وقد دخل في جملة المنقطعين إلى الله تعالى بالاسم، وشهدت له قلوب الصادقين بصحة إرادته، ولم يترسم بعد بحال ولا مقام، فهو في السير مع إرادته» [موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ص 204]. فالمريد هو الذي يرقى في المقامات والأحوال للوصول إلى الله تعالى.

2. مراتب المريدين:

مراتب المريدين على قدر صدقهم واجتهادهم، وشرط المريد الصادق أن لا يهدأ له شوق إلا بقاء الله تعالى، وعلامته ترك الدنيا ومداومة ذكر الله، وبداية المريد عزم، ونهايته صدق، والمريدون يتفاضلون بالعمل، والمتوسطون بالأدب، والعارفون بالهمة. والمريد المتحقق بالأعمال الصالحة هو في مقام «الإسلام»، والمتحقق الذي يريد الموعودات الغيبية هو في مقام «الإيمان»، والذي مطلوبه الله سبحانه وتعالى هو في مقام «الإحسان».

3. اختيار الشيخ ووجوب اتباعه

على المريد أن يجتهد في اختيار شيخه ومن عرف بالتقوى والصلاح والعلم فيقتصر على اتباعه «ومن شأنه أن لا يتلمذ إلا لشيخ قد تزلع من علوم الشريعة، وذلك ليكفيه عن الاجتماع على غيره...»، وعلى ذلك يحمل كلام أبي القاسم القشيري -رحمه الله- في قوله: ويقبح على المريد أن ينتسب إلى مذهب أحد غير شيخه، بل يقلد شيخه فقط، فإنه بيقين محمول على شيخ قد تبحر في علوم الشريعة، فلا يقبح على المريد الانتساب إلى غيره، بل ذلك واجب عليه» [الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، للشعراني، ص 62]. ولذلك قالوا «من المريد الاستعداد ومن الشيخ الإمداد»، قال الشيخ زروق رحمه الله «ضبط النفس بأصل يرجع إليه في العلم والعمل لازم؛ لمنع التشعب والتشعب، فلزم الاقتداء بشيخ، قد تحقق اتباعه للسنة، وتمكُّنه من المعرفة؛ ليرجع إليه فيما يرد أو يُراد، مع النقاط الفوائد الراجعة لأصله من خارج؛ إذ الحكمة ضالة المؤمن، وهو كالنحلة ترعى من كل طيب ثم لا تبيت في غير جبعها، وإلا لم يُنتفع بعسلها» [قواعد التصوف، ص 54].

4. حاجة المريد إلى الشيخ

اتفق أرباب الطريقة على وجوب اتخاذ شيخ «ومعرفته فرض عين على كل مكلف» [الدر الثمين والمورد المعين، لميارة، ص 546]؛ لأنه يرشد إلى تخلية النفس من الصفات الذميمة (كالكبر، والعجب، والحقد، والنفاق) للتأهل لدخول حضرة الله تعالى بقلبه، وتخلية النفس من هذه الصفات الذميمة فريضة، قال ابن عطاء الله السكندري - رضي الله عنه -: «وينبغي لمن عزم على الاسترشاد، وسلوك طريق الرشاد أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق، سالك للطريق، تارك لهواه، راسخ القدم في خدمة مولاه، فإذا وجده فليمتثل ما أمر، ولينته عما نهى عنه وزجر» [مفتاح الفلاح، لابن عطاء الله، ص 33]. فلا غنى له عن يرشده ويوجهه؛ إذ «لا بد للمريد في هذا الطريق من صحبة شيخ محقق مرشد قد فرغ من تأديب نفسه، وتخلص من هواه، فيسلم نفسه إليه، ويلزم طاعته والانقياد إليه في كل ما يشير به عليه من غير ارتياب ولا تردد» [الدر الثمين، ص 546]؛ ذلك «أن الشيخ من منح الله وهداياه للعبد المريد إذا صدق في إرادته وبذل في مناصحة مولاه جهد استطاعته لا على ما يتوهمه من لا علم عنده، وعند ذلك يوفقه الله لاستعمال الآداب معه لما أرشده على مرتبته ورفيع درجته» [الدر الثمين، ص 584].

ومن فوائد الشيخ ومنافعه للمريد إعانته على الثبات واجتناب الهوى، قال العلامة عبد الله بن الصديق - رحمه الله - «في سلوك الطريق بصحبة شيخ مرشد عارف خروجاً من رعونات النفس وحماية للمريد من كل ما يمنعه من الوصول إلى الله تعالى من أنواع الجهل والغرور ودواعي الهوى الموقعة في ظلمة القلب وإطفاء النور». [حسن التلطف في بيان وجوب سلوك التصوف، ص 158 بتصرف].

5. آداب المريد

آداب المريد متعددة، منها: آدابه مع نفسه، وآدابه مع شيخه، وآدابه مع المريدين والناس أجمعين.

أ- آداب المريد مع نفسه، وتشمل جملة من الآداب، منها:

- الصدق في طلب طريق الله، ثم الصدق في محبة الشيخ؛ لأنه دليله في السلوك.
- التوبة من سائر الذنوب الظاهرة والباطنة، كالغيبة، والحسد.
- ملازمة المجاهدة للنفس، ومن خصائص طريق أهل الله أن العبد إذا لم يعط الطريق كله لا تعطه الطريق بعضها، وكان أبو عثمان المغربي - رحمه الله - يقول «من ظن أنه يفتح عليه بشيء من هذه الطريق بغير مجاهدة فقد رام المحال» [الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، ص 55].

ومقتضى آداب المريد مع نفسه عند دخوله الطريق أن يحرص على: المجاهدة، والمكابدة، والصدق، والتصديق، والتوكل، واليقين، والجد في طلب الحق، وبذل النفس والجاه والمال للتحقق بالعبودية والقيام بوظائف الربوبية.

ب- آداب المريد مع الشيخ

لا ينتفع المريد بالشيخ إلا إذا تحلى بجملة من الآداب والأخلاق، ومنها: ملازمة الشيخ، واختيار المكان الملائم لخلوته؛ فذلك دليل سعادته، ومعالجة الأخلاق، ونفي الغفلة عن القلب بمداومة الذكر، ومداومة تنظيف الظاهر والباطن، والإعراض عن اللغو، فلا يتكلم إلا لضرورة، وقد قيل «من وافق شهوته عدم صفوته». وأصول آداب المريد مع الشيخ والإخوان خمسة: اتباع الأمر وإن ظهر له خلافه، واجتناب النهي وإن كان فيه حتفه، وحفظ حرمة إن كان حاضرا أو غائبا، حيا أو ميتا، والقيام بحقوقه حسب الإمكان بلا تقصير [المفاخر العلية، ص 112 بتصرف].

ج- آداب المريد مع المريد

لعل من تمام النفع أن نختم ببيان آداب المريد مع المريد ومع الناس أجمعين لتكتمل بذلك جملة الآداب، ويتحقق التحلي بالفضائل والأخلاق، فللمريد مع المريد أيضا آداب يتعين عليه التزامها، منها «حفظ حرمان المشايخ، وحسن العشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر، وترك صحبة من ليس من طبقتهم، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادخار، والمعاونة في أمر الدنيا والدين» [آداب المريدين، ص 34]. ويصحب كل أحد على قدر حاله وما يليق به «فالصحبة مع المشايخ والكبراء بالاحترام، والخدمة والتوقير، والقيام بأشغالهم. والصحبة مع الأقران بالبشر والانبساط والموافقة، وبذل المعروف والإحسان» [آداب المريدين، ص 34].

التقويم

1. أبين مفهوم الشيخ والمريد في الفكر الصوفي.
2. أذكر صفات الشيخ المربي.
3. أبين آداب المريد مع الشيخ.

الاستثمار

نقل الشيخ زروق عن الإمام ابن عطاء السكندري -رحمهما الله- قوله: «وليس شيخك من سمعت منه، وإنما شيخك من أخذت عنه، وليس شيخك من واجهتك عباراته، وإنما شيخك الذي سرت فيك إشارته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك الذي نهض بك حاله، شيخك الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى، شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك حتى تجلت فيه أنوار ربك، نهض بك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، ولا زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه، فزج بك في نور الحضرة».

[عدة المرید الصادق، أحمد زروق، ص 160].

أصنف صفات الشيخ الواردة في هذا النص في خطاطة.

الإعداد القبلي

أبحث عن الطريقة التي اختارها المغاربة في التصوف، وأبين أسباب اختيارها.